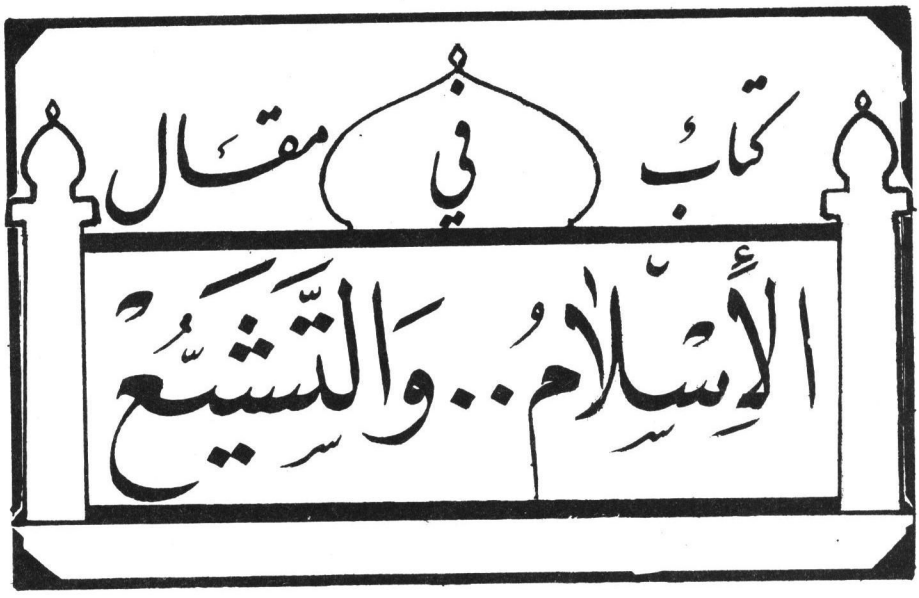

عرض وتلخيص يقدمه :

الشيخ الفياض اليزدي

لسماحة آية الله الصدر

تمهيد :

جرى بعض الباحثين المحدّثين على دراسة التشيّع بوصفه ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي ، والنظر الى القطاع الشيعي في جسم الامة الاسلامية بوصفه قطاعاً تكوّن على مرّ الزمن ، نتيجة لاحداث وتطورات اجتماعية معينة ادت الى تكوين فكري ومذهبي خاص بجزء من ذلك الجسم الكبير ، ثم اتسع الجزء بالتدريج .

وهؤلاء الباحثون يختلفون في تلك الاحداث التي ادت الى نشوء تلك الظاهرة :

فمنهم : من يفترض ان "عبد الله بن سبأ" المزعوم هو الاساس لذلك التكتل الشيعي .

ومنهم : من يردّ ولادة التشيع الى عهد خلافة الامام علي عليه السلام

ومنهم : من يزعم ان ظهور الشيعة يكمن في احداث متأخرة عن ذلك في التسلسل التاريخي للمجتمع الاسلامي .

واظن ان الذي دعا هؤلاء الباحثين الى هذا الافتراض والاعتقاد "بان التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي" هو ان الشيعة لم يكونوا يمثلون في صدر الاسلام إلّا جزاء ضئيلاً من مجموع الامة الاسلامية فقد اوحت هذه الحقيقة شعوراً بان اللاتشيع كان هو القاعدة في المجتمع الاسلامي ، وان التشيع هو الاستثناء والظاهرة الطارئة التي يجب اكتشاف اسبابها من خلال تطورات المعارضة للوضع السائد .

ولكن اتخاذ الكثرة العددية اساساً لتمييز القاعدة والاستثناء ليس شيئاً منطقياً فمن الخطأ اعطاء الاسلام اللاتشيعي صفة الاصالة على اساس الكثرة العددية واعطاء الاسلام التشيعي صفة الظاهرة الطارئة فان هذا لا يتفق مع طبيعة الانقسامات العقائدية ولا يجوز بحال من الاحوال ان نبني تصوراتنا عن الانقسام العقائدي داخل اطار الرسالة الاسلامية الى شيعة وغيرهم على الناحية العددية .

كما لا يجوز ايضاً ان نقرن ولادة الاطروحة الشيعية في اطار الرسالة الاسلامية بولادة كلمة : "الشيعة" او : "التشيع" كمصطلح خاص لفرقة محدودة من المسلمين ، لان ولادة الاسماء والمصطلحات شيء ونشوء المحتوى شيء آخر ، فاذا كنا لا نجد كلمة : "الشيعة" في اللغة السائدة في حياة الرسول (ص) او بعد وفاته ، فلا يعني هذا ان الاتجاه الشيعي لم يكن موجوداً .

بهذه الروح يجب ان نعالج قضية التشيع والشيعة ونجيب على السؤالين التاليين :

١ــ كيف ولد التشيع ؟

٢ــ وكيف وجد الشيعة ؟

اما فيما يتعلق بالسؤال الاول :فنحن نستطيع ان نعتبر التشيع نتيجة طبيعية للاسلام .

ويمكننا ان نستنتج هذه الاطروحة استنتاجاً منطقياً من الدعوة التي كان الرسول الاعظم(ص) يتزعم قيادتها ،فان النبي(ص) كان يباشر قيادة دعوة ثورية ويمارس عملية تغيير شاملة للمجتمع وانظمته ومفاهيمه ،ولم يكن الطريق قصيراً امام عملية التغييرهذه بل كان طريقاً طويلاً وممتداً بامتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والاسلام .

فكان على الدعوة التي يمارسها النبي(ص) ان تبدأ بانسان الجاهلية فتنشؤه انشاء جديداً ،وتجعل منه الانسان الاسلامي الذي يحمل النور الجديد ،وتجتث منه كل جذور الجاهلية ورواسبها . وقد خطا القائد الاعظم(ص) خطوات مدهشة في برهة قصيرة في عملية التغيير ،ويجب ان تواصل طريقها الطويل حتى بعد وفاة النبي(ص) الذي ادرك منذ فترة قبل وفاته ان اجله قد دنا ،واعلن ذلك بوضوح في :"حجة الوداع" وهذا يعني انه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة ــ حتى اذا لم ندخل في الموقف علل الاتصال الغيبي والرعاية الالٰهية للرسالة عن طريق الوحي ــ وفي هذا الضوء يمكننا ان نلاحظ ان النبي(ص) كان امامه ثلاث طرق بالامكان سلوكها تجاه مستقبل الدعوة :

الطريق الاول :

ان يقف من مستقبل الدعوة موقفاً سلبياً ويكتفي بممارسة دوره في قيادة الدعوة طول حياته ويتركها في مستقبلها .

وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبي(ص) لانها انما تنشأ من احد امرين كلاهما لا ينطبقان عليه(ص) :

الامر الاول :الاعتقاد بان هذه السلبية والاهمال لا تؤثر على مستقبل الدعوة وان الامة قادرة على احياء الدعوة وتضمن عدم الانحراف بنفسها .

وهذا الاعتقاد لا مبرر له من الواقع اطلاقاً فان الرسول(ص)اذا ترك الساحة دون تخطيط لمسير الدعوة فسوف تواجه الامة اخطر مشاكل الدعوة وتواجه الصدمة التي نشأت من فقدها لقائدها الكبير ،الصدمة التى تزعزع

سير التفكير وتبعث الاضطراب في الامة ،حتى انها جعلت صحابياً معروفاً يعلن بفعل الصدمة ان : " النبي(ص) لم يمت ولن يموت" ! .

وهناك الاخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي والتناقضات الكامنة التي كانت ولا تزال تعيش في زوايا نفوس المسلمين ،على اساس الانقسام الى : مهاجرين وانصار ،او قريش وسائر العرب ،او مكة ومدينة .

وهناك اخطار المنافقين ،واذا اضفنا اليهم عدداً كبيراً ممن اسلم بعد الفتح استسلاماً للامر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة ،نستطيع ان نقدّر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر ان تولده مع خلو الساحة من رعاية القائد .

فلم تكن اذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي(ص) شيئاً يمكن ان يخفى على اي قائد مارس العمل العقائدي فضلاً عن خاتم الانبياء .

واذا كان ابو بكر لم يشأ ان يترك الساحة دون ان يتدخل تدخلاً ايجابياً في ضمان مستقبل الحكم ..

واذا كان الناس قد هرعوا الى عمر حين ضُرب قائلين : " يا امير المؤمنين لو عهدت عهداً "[1] خوفاً من الفراغ الذي يخلفه الخليفة ..

واذا كان عمر يدرك بعمق خطورة الموقف في يوم السقيفة ،اذ يقول : " ان بيعة ابي بكر كانت فلتة غير ان الله وقى شرّها "[2]

واذا كان ابو بكر نفسه ـ يعتذر عن تسرّعه الى قبول الحكم وتحمّل المسؤولية الكبيرة بانه شعر بخطورة الموقف ـ اذ يقول : " ان رسول الله قُبض والناس حديثوا عهد بالجاهلية فخشيت ان يفتتنوا ،وان اصحابي حمّلونيها "[3]

اذا كان كل ذلك صحيحاً ،فمن البديهي ان يكون رائد الدعوة ونبيّها اكثر شعوراً بخطر السلبية واعمق فهماً وادراكاً لطبيعة الموقف.

١ـ تاريخ الطبري/ ٥/ ٢٦ .
٢ـ تاريخ الطبري/ ٣/ ٢٠ .
٣ـ شرح النهج لابن ابي الحديد / ٦/ ٤٢ .

الامر الثاني :

الذي يمكن ان يفسّر سلبية القائد تجاه مستقبل الدعوة ومصيرها بعد وفاته :

انه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لا يحاول تحصين الدعوة ضد ذلك الخطر، فلا يهمه الآ ان يحافظ عليها مادام هو حياً ليستفيد منها ويستمتع بمطالبها !.

وهذا التفسير لا يمكن ان يصدق على النبي(ص) حتى اذا لم نلاحظه نبياً ومرتبطاً بالله سبحانه وتعالى ، لان اخلاصه لدعوته وتفانيه فيها وكل تاريخ حياته يبرهن على ذلك، وقد كان(ص) على فراش الموت وقد ثقل مرضه وهو يجود بنفسه وهمّه الشاغل تجهيز جيش اسامة فكان يقول : " جهّزوا جيش اسامة ، انفروا جيش اسامة " [4]

فكيف يمكن ان نتصور ان النبي(ص) لا يعيش هموم مستقبل الدعوة ولا يخطط لسلامتها بعد وفاته من الاخطار المترقبة ؟ !.

واخيراً في سلوك الرسول(ص) في مرضه الاخير ما هو وحده يكفي لنفي الطريق الاول ،وقد اجمعت صحاح المسلمين جميعاً سنّة وشيعة على نقله ،وهو : ان الرسول(ص) لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال(ص) : " أيتوني بالكتف والدواة اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ابدا " [5]

فليس من الممكن افتراض الموقف السلبي بحال من الاحوال .

الطريق الثاني :

ان يتخذ الرسول القائد (ص) لمستقبل الدعوة موقفاً ايجابياً ،فيجعل القيمومة على الدعوة للامة الممثلة على اساس النظام الشورى في جيلها العقائدي الاول ، الذي يضم مجموع المهاجرين والانصار، فهذا الجيل

٤ــ تاريخ الكامل لابن اثير،

٥ـ مسند احمد / ١/ ٣٠٠، وصحيح مسلم /ج ٢ في آخر الوصايا ، والبحار/ج ١ كتاب الصلح .

الممثل للامة هو الذي سيكون محور قيادة الدعوة في خط نموها .

وهنا يلاحظ ان طبيعة الاشياء والوضع العام الثابت عن الرسول (ص) والدعوة والدعاة ، يدحض هذه الفرضية وينفي ان يكون النبي (ص) قد اتجه الى ربط قيادة الدعوة بعده مباشرة بالامة على اساس نظام الشورى ..

وفيما يلي بعض النقاط التي توضح ذلك :

١ــ لو كان النبي (ص) قد اتخذ هذا الطريق ، لكان من أبدَه الاشياء التي يتطلبها هذا الموقف الايجابي ، ان يقوم الرسول القائد (ص) بعملية توعية للامة والدعاة على نظام الشورى وحدوده وتفاصيله ، واعطائه طابعاً دينياً مقدساً ، واعداد المجتمع الاسلامي اعداداً فكرياً وروحياً لتقبّل هذا النظام .

ونستطيع بسهولة ان ندرك ان النبي (ص) لم يمارس عملية التوعية في نظام الشورى وتفاصيله التشريعية او مفاهيمه الفكرية ، لان هذه العملية لو كانت لكان من الطبيعي ان تنعكس وتتجسّد في الاحاديث المأثورة عن النبي (ص) او في ذهنية الامة او على اقل تقدير في ذهنية الجيل الطليعي منها المهاجرين والانصار مع اننا لانجد في الاحاديث عن النبي (ص) اي صورة تشريعية محددة لنظام الشورى .

واما ذهنية الامة او ذهنية الجيل الطليعي منها ، فلانجد فيها ايضاً اي ملامح لتوعية من هذا القبيل ..

فان هذا الجيل كان يحتوي على اتجاهين :

احدهما : الاتجاه الذي يتزعمه اهل البيت .

والآخر : الاتجاه الذي تمثله السقيفة والخلافة التي قامت فعلاً بعد وفاة النبي (ص) .

اما الاتجاه الاول : فمن الواضح انه كان يؤمن بالوصاية والامامة ويؤكد على القرابة ولم ينعكس منه الايمان بفكرة الشورى .

واما الاتجاه الثاني : فكل الارقام والشواهد في حياته وتطبيقه العملي تدل بصورة لاتقبل الشك على انه لم يكن يؤمن بالشورى ، وان هذا الاتجاه يبين ممارسته الفعلية على اساسها .

والشيء نفسه نجده في سايرقطاعات ذلك الجيل الذي عاصر وفاة الرسول الاعظم (ص) من المسلمين.

ونلاحظ بهذا الصدد للتأكد من ذلك: ان ابا بكر حينما اشتدت به العلة عهد الى عمر بن الخطاب فامر عثمان ان يكتب عهده، فكتب:

" بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ماعهد ابو بكر خليفة رسول الله الى المؤمنين والمسلمين: سلام عليكم، اني احمد اليكم الله. اما بعد: فاني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا واطيعوا".

وواضح من هذا الاستخلاف ان الخليفة لم يكن يفكّر بعقلية نظام الشورى وانه كان يرى من حقه تعيين الخليفة، وان هذا التعيين يفرض على المسلمين الطاعة، ولهذا امرهم بالسمع والطاعة.

ونلاحظ ايضاً: ان عمر راى من حقه فرض الخليفة على المسلمين، ففرضه في نطاق ستة اشخاص، وأوكل امر التعيين الى الستة انفسهم (بصورة كانت نتائجها مدروسة ومعلومة من قبل) دون ان يجعل لسائر المسلمين اي دور حقيقي في الانتخاب.

ان الطريقة التي مارسها الخليفة الاول والخليفة الثاني للاستخلاف والروح العامة التي سادت على الجناحين المتنافسين (المهاجرين والانصار يوم السقيفة: (عدم مشاركة الانصار في الحكم، او التأكيد على المبررات الوراثية التي تجعل من عشيرة النبي (ص) اولى العرب بميراثه) واعلان ابي بكر الذي فاز بالخلافة في ذلك اليوم عن اسفه لعدم السؤال من النبي (ص) عن صاحب الامر بعده..

كل ذلك يوضح بدرجة لاتقبل الشك: ان هذا الجيل الطليعي من الامة الاسلامية ــ بما فيه القطاع الذي تسلّم الحكم بعد وفاة النبي (ص) لم يكن يفكر بذهنية الشورى. فكيف يمكن ان نتصور ان النبي (ص) مارس عملية توعية على نظام الشورى فكرياً، واعدّ جيل المهاجرين والانصار لتسلم قيادة الدعوة بعده على اساس هذا النظام، ثم لانجد لدى هذا الجيل تطبيقاً واقعياً لهذا النظام او مفهوماً محدداً عنه؟

ومما يوضح هذه الحقيقة بدرجة اكبر ان نلاحظ:

اولاً: ان نظام الشورى كان نظاماً جديداً بطبيعته على تلك البيئة التي لم تكن قد مارست قبل النبوة، فكان لابد من توعية مركزّة عليه.

وثانياً: ان الشورى كفكر، مفهوم غائم، لا يكفي طرحه مالم تشرح تفاصيله وموازينه ومقاييس التفضيل عند اختلاف الشورى، وهل تقدم هذه المقاييس على اساس العدد والكمّ او على اساس الكيف والخبرة؟ الى غير ذلك مما يحدد معالم هذه الفكرة ويجعلها صالحة للتطبيق فور وفاة النبي(ص).

وثالثاً: ان الشورى تعبّر في الحقيقة عن ممارسة الامة ـ بشكل وآخر للسلطة عن طريق التشاور وتقرير مصير الحكم، فهي مسؤولية تتعلق بعدد كبير من الناس هم كل الذين تشملهم الشورى، وعلى هذا فلو كانت الشورى حكماً شرعياً يجب وضعه موضع التنفيذ عقب وفاة النبي(ص) لكان لابد من طرحه على اكبر عدد من اولئك الناس، لان موقفهم من الشورى ايجابي، وكل منهم يتحمل قسطاً من المسؤولية..

وكل هذه النقاط تبرهن على: ان النبي(ص) لم يكن قد طرح فكرة الشورى كنظام بديل على الامة، اذ ليس من الممكن عادة ان تطرح بالدرجة التي تناسب مع اهميتها، ثم تختفي وتنطمس اختفاءً كاملاً عن الجميع وعن كل الاتجاهات.

الطريق الثالث:

وهو الطريق الوحيد الذي بقي منسجماً مع طبيعة الاشياء، ومعقولاً على ضوء ظروف الدعوة والدعاة، وسلوك النبي(ص)..

هو ان يقف النبي(ص) من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفاً ايجابياً فيختار بأمر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ شخصاً يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة، فيعدّه اعداداً رسالياً وقيادياً خاصاً، لتتمثل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية، وليواصل بعده وبمساندة القاعدة الشعبية الواعية من المهاجرين والانصار قيادة الامة وبناءها عقائدياً.

وهكذا نجد بان هذا هو الطريق الوحيد الذي كان بالامكان ان يضمن سلامة مستقبل الدعوة في خط نموّها.

وليس ماتواتر عن النبي (ص) من النصوص التي تدل على انه كان يمارس اعداداً رسالياً وتثقيفاً عقائدياً خاصاً لبعض الدعاة على مستوى تهيئة للمرجعية الفكرية والسياسية، وانه عهد اليه بمستقبل الدعوة وزعامة الامة من بعده فكرياً وسياسياً..

وليس هذا الا تعبيراً عن سلوك الرسول (ص) للطريق الثالث.

ولم يكن هذا الشخص الداعي المرشح للاعداد الرسالي والقيادي والمنصوب لتسلّم مستقبل الدعوة الا (علي بن ابي طالب) عليه السلام الذي كان هو المسلم الاول والمجاهد الاول في سبيل الدعوة عبر كفاحها المرير ضدّ كل اعدائها، وربيب الرسول (ص) الذي فتح عينيه في حجره ونشأ في كنفه.

والشواهد من حياة النبي (ص) والامام عليه السلام على ان النبي (ص) كان يعدّ الامام اعداداً رسالياً خاصاً كثيرة جداً:

فقد كان النبي (ص) يخصّه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها، ويبدؤه بالعطاء الفكري والتثقيف اذا استنفذ الامام اسئلته، ويختلي به الساعات الطوال في الليل والنهار:

روى الحاكم في (المستدرك) بسنده عن ابي اسحاق: سألت القاسم بن العباس: كيف ورث علي رسول الله (ص)؟ قال: "لانه كان اولنا به لحوقاً واشدّنا به لزوقاً".

وفي (حلية الاولياء) عن ابن عباس انه يقول: "كنا نتحدث ان النبي (ص) عهد الى علي سبعين عهداً لم يعهده الى غيره".

وقال امير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة الشهيرة، وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي (ص) باعداده وتربيته:

"ولقد علمتم موضعي من رسول الله، والقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وانا ولد، يضمني الى صدره ويكنفني في فراشه ويمسّني جسده ويشمّني عرقه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وَجَدَ لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، وقد كنت اتبعه اتباع الفصيل لأثر امه، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه ويأمرني بالاقتداء به.

ولقد كان يجاورني كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وانا ثالثهما ، ارى نور الوحي والرسالة واشم ريح النبوة "·

ان هذه الشواهد وشواهد اخرى كثيرة ، تقدّم لنا صورة عن ذلك الاعداد الرسالي الذي كان النبي (ص) يمارسه في سبيل توعية الامام على المستوى القيادي للدعوة · كما ان في حياة الامام علي عليه السلام بعد وفاة القائد الرسول (ص) ارقاماً كثيرة جداً تكشف عن ذلك الاعداد العقائدي الخاص من قبل النبي (ص) :

فقد كان الامام هو المفزع والمرجع لحل اي مشكلة يستعصى حلها على القيادة الحاكمة وقتئذ ، ولا نعرف في تاريخ التجربة الاسلامية على عهد الخلفاء الاربعة واقعة واحدة رجع فيها الامام الى غيره لكي يتعرّف على علاجها للموقف بينما في التاريخ عشرات الوقائع التي احسّت القيادة الاسلامية الحاكمة فيها بضرورة الرجوع الى الامام ·

واذا كانت الشواهد كثيرة على ان النبي (ص) كان يعدّ الامام اعداداً خاصاً لمواصلة قيادة الدعوة من بعده ، فالشواهد على اعلان الرسول القائد عن تخطيطه هذا واسناد زعامة الدعوة الفكرية والسياسية رسمياً الى الامام علي عليه السلام لا تقل عنها كثرة · كما نلاحظ ذلك في (حديث الدار) و (حديث الثقلين) و (حديث المنزلة) و (حديث الغدير) وعشرات النصوص الاخرى "·

وهكذا وجد التشيّع في اطار الدعوة الاسلامية متمثلاً في الاطروحة التي وضعها النبي (ص) بامر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة ·

وهكذا وجد التشيع لا كظاهرة طارئة على مسرح الاحداث ، بل كانت كنتيجة ضرورية لطبيعة تكوّن الدعوة وظروفها الاصلية التي كانت تفرض على الاسلام ان يلد التشيع ·

× × ×